في المعجم الفلاحي العربي (*)

عبد اللطيف عبيد
أستاذ بمعهد بورقيبة للغات الحية - تونس

سيداتي، سادتي

سأتحدث اليكم في هذه الكلمة القصيرة عما يمكن ان نسميه بالمعجم الفلاحي العربي اي المصطلحات الفلاحية في اللغة العربية قديما وحديثا.

ان هذا الموضوع ، الذي رايت انه يمكن أن تكون له علاقة بملتقانا هذا ، لم يبحث الى حد علمي ، بحثا يمكننا من ان نتبين بدقة الاتجاهات التي تسير وفقها المعجمية الفلاحية العربية . بل استطيع القول ان علم الفلاحة عند العرب انفسهم لم ينل الحظ الذي يستحقه من البحث اذا ما قارناه مثلا بالطب والصيدلة وعلم النبات ، وهي علوم حظيت بدراسات على غاية كبيرة من الاهمية وخاصة من قبل عدد من المستشرقين منهم « لوسيان لوكلارك » (Lucien Leclerc) الذي نقل كتاب « الجامع لمفردات الادوية والاغذية» لابن البيطار الى اللغة الفرنسية ونشره نشرة علمية محققة في باريس بين سنتي 1877 و 1883 . ذلك انه اذا ما استثنينا الدراسة القيمة التي انجزتها : « لوسي بولانس » (L. Bolens) وعنوانها Les méthodes culturelles au moyen-âge d'après les traités d'agronomie Andaloux: Traditions et Techniques.

المنشورة في « جنيف GENEVE » سنة 1974 والتي خصصتها لدراسة المدرسة الفلاحية الاندلسية في عهد ملوك الطوائف (اي في القرنين 5 و 6 هـ / 11 و 12 م) فان المقالات القليلة نسبيا التي خصصت لدراسة التراث العلمي الفلاحي ضئيلة القيمة ولا تضيف جديدا الى المقالات التي كتبها المستشرق الاسباني « مياس فاليكروسا » (J. M. Millas Vallicrosa) عن كتب علماء الزراعة الاندلسيين المخطوطة منها والمطبوعة والتي نشرها في مجلات استشراقية ومغربية عديدة ، وكذلك الى المقالات التي نشرها الامير مصطفى الشهابي في مجلتي مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق ودائرة المعارف الاسلامية .

ومنذ البداية اقول ، ان المعجم الفلاحي العربي ما زال مفتودا شانه شان بقية معاجم العلوم العربية، وان كان يبحث عن نفسه باستمرار ، الا انه في الوقت نفسه مبثوث في الكثير من المؤلفات العربية المتنوعة المواضيع من لغوية وادبية وجغرافية وفقهية وعلمية على امتداد خمسة عشر قرنا من تاريخ العرب والمسلمين . ففي فترة ما قبل الاسلام نجد الشعراء قد تحدثوا عن بيئتهم الطبيعية ومونتهم منها

(*) القيت هذه الكلمة في الملتقى العربي الفرنسي الذي انعقد في مدينة الحمامات بتونس من 16 الى 20 مايو 1978 لبحث التعاون في مجال الفلاحة والبيئة ومقاومة التصحر .

ودورهم فيها ، فوصفوا ، بكثير من الدقة احيانا ، مظاهر البيئة الجغرافية ومنابع المياه وادوات استخراجها من الآبار . ثم نجد أن القرآن ، الذي حث على الفلاحة ، قد كان منطلقا لنشاط لغوي كبير تمثل في جمع لغة البادية اي اللغة العربية الفصيحة التي لم تتاثر في راي لغويي القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) بلغة الاعاجم . ففي هذا القرن ، وكذلك في بداية القرن الموالي له ، وضع ابو عبيدة والاصمعي وابن الاعرابي وغيرهم رسائلهم اللغوية المشهورة في الخيل والابل والحشرات والبئر وغيرها من المواضيع المرتبطة بالبيئتين الطبيعية والحيوانية . ان هذه الرسائل اللغوية او الكتب المفردة ستكون المادة الخام التي سيعتمدها ابو عبيد القاسم بن سلام الهروي (154–224 هـ / 770 — 838 م) لوضع معجمه الكبير «الغريب المصنف»

ان هذا الكتاب الذي هو حصيلة الكتب المفردة التي سبقته ، يمكن اعتباره بحق معجما مصنفا او « معجم معان » « Dictionnaire analogique » اذ ان ابا عبيدة لم يرتب مادته اللغوية ترتيبا ابجديا وانما وضعه حسب ابواب يبلغ عددها سبعة وعشرين نذكر منها باب الدور والارضين ، وباب الخيل ، وباب الطير والهوام ، وباب الجبال ، وباب الشجر والنبات ، وباب المياه وانواعها ، وباب السحاب ، وباب الامطار والازمنة والرياح ، وباب الابل ونعوتها وباب الغنم ونعوتها الخ ... فهذا المعجم الذي ما زال القسم الكبير منه مخطوطا (اذ حقق زملاء من كلية الآداب بتونس حوالى ثلث ابوابه باشراف الاستاذ محمد رشاد الحمزاوي) ، يهتم ، كما تلاحظون ، بميادين عديدة يرتبط فيها الانسان بالارض والحيوان، وان اهمية هذا المعجم المصنف لتتضح اكثر اذا عرفنا ان المعاجم اللغوية التي وضعت بعده كانت عالة عليه فاستنفدت مادته اللغوية ، ويأتي في مقدمة هذه المعاجم « المخصص » لابي الحسن علي بن اسماعيل بن سيدة المرسي الاندلسي (398هـ — 458هـ) . يعد « المخصص » من اقدم المصنفات اللغوية الموسعة واوفرها مادة . وينقسم الى كتب يذكر بعضها بالرسائل اللغوية في القرن الثاني للهجرة ، ومن بين مواضيعه: الزراعة، واعداد الارض، وآلات الحرث ، وما ينبت بالرمال ، وانواع القموح والحبوب المختلفة والاشجار المثمرة والكروم ، والنبات الخاص بالجبال او السهول او ضفاف الانهار ، والآبار والاحواض والصهاريج وآلات السقي والقنوات وغيرها . وهكذا فان هذه المادة المعجمية التي جمعت من أفواه الاعراب في القرن الثاني خاصة قد كانت اساس «الغريب المصنف» ثم « المخصص » وستواصل رحلتها عبر المعاجم العربية ليستقر أغلبها فيها ، على ان قسما منها قد بقي حيا ايضا في الاستعمال اللغوي لدى فلاحي البلاد العربية الى يومنا هذا ، وان اصابها تحريف احيانا في مستوى الصوت والصرف وتغير في المدلول احيانا اخرى ، وبذلك تلتقي المعاجم ذات الثروة اللغوية الفلاحية باللهجات العامية في البلاد العربية .

الا ان الاهتمام بالبيئة الطبيعية والحيوانية وعمل الانسان المتصل بهما او ما يمكن ان نسميه تجوزا بعلم الفلاحة لم يبق منحصرا في كتب اللغة . فاثناء عهد نقل العلوم الاجنبية وخاصة اليونانية الى العربية وفي سنة 291 هـ — 905 م ، وضع ابن وحشية الكتاب الاول في الفلاحة بالعربية وهو « الفلاحة النبطية » . وهذا الكتاب ، الذي ما زال مخطوطا ، ما فتىء موضوع جدل كبير بين المهتمين بالعلوم العربية ذلك اننا لم نملك بعد الدليل القاطع ان كان من تاليف ابن وحشية او هو نقله من النبطية او السريانية الى اللغة العربية . لكن الذي لا شك فيه هو انه يمثل نقطة البدء الاساسية في التاليف الفلاحي العربي وانه مصدر اساسي لأغلب مَنْ كَتبَ في الفلاحة من العرب بعده .

ولقد تواصل التاليف في الفلاحة في المشرق بعد « الفلاحة النبطية » . فبعيده ترجم سَرْجَس بن هليا الرومي كتاب « الفلاحة الرومية » لقسطوس الرومي، كما خصص جمال الدين محمد بن يحيى الوطْواط الكُتُبي (المتوفى سنة 718 هـ / 1318 م) السِّفْر الرابع من كتابه : « مباهج الفكر ومناهج العبر » للنبات والزراعة. وفي القرن الثاني عشر الف عبدالغني النابلسي (المتوفى سنة 1143 هـ / 1731 م) : « كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة » اختصارا لكتاب كان وضعه رضي الدين محمد بن احمد الغَزّي العامري (المتوفى سنة 935 هـ / 1529 م) ويوجد مخطوط منه في المكتبة الوطنية بتونس . وان مختصر عبد الغني النابلسي الذي طبع بدمشق سنة 1299 هـ /1882 م قد تعرض الى اهم المسائل الزراعية ، وخاصة زراعة الاشجار المثمرة ، بكثير من الدقة مستعملا لغة اصطلاحية مضبوطة بل انه عمد احيانا الى تحلية كتابه برسوم توضح طرق تقليم

الاشجار . وليست الكتب المذكورة هي كل ما كتب في الفلاحة في المشرق بعد ابن وحشية ، وان كانت في نظرنا اهمها . وان ما نستخلصه من تتبعنا لمسيرتها انها تخلصت شيئا فشيئا من السحر والخرافات والاستطراد عامة لتصبح مؤلفات ذات طابع علمي وعملي دقيق بالنسبة الى عصرها . وانها لتحتاج الى جرد مصطلحاتها قصد اثراء المعجم الفلاحي العربي الحديث بها .

اما بالنسبة الى المغرب فلا بد من التوقف عند فترة هامة من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية استقل فيها علم الفلاحة عن غيره من العلوم المتصلة به ، او كاد ، وخضع للمشاهدة والتجربة العملية الدقيقة . ونعني بهذه الفترة القرنين الخامس والسادس للهجرة بالاندلس (11 و 12 م) ، فقد سمحت اللامركزية الادارية التي عرفتها الاندلس في عهد ملوك الطوائف باعتناء حكام طليطلة واشبيلية وغرناطة بالفلاحة وتشجيعهم لعلمائها الذين ياتي في مقدمتهم، في نظرنا ، ابن بصال مؤلف «كتاب الفلاحة» الذي نشره في تطوان بالمغرب سنة 1955 خ. م. مياس فاليكروسا ومحمد عزيمان ، لكن دون ان ننسى ابن واقد وابا الخير وابن العوام وغيرهم من اعلام المدرسة الفلاحية الاندلسية . قسّم ابن بصال كتابه الى ستة عشر بابا اهتم فيها بالمياه والارضين والسماد وغراسة الاشجار وتشذيبها وتركيبها وكذلك بزراعة الحبوب والبزور والبقول والرياحين وغيرها من مواضيع علم الفلاحة . وان دراسة هذا الكتاب ، الذي نحا فيه مؤلفه منحى الايجاز والاختصار العملي (خلافا لابن العوام الذي كان في مؤلفه « كتاب الفلاحة» جماعا لكل ما وقعت يده عليه من كتب الرومان والمشرقيين والاندلسيين) تدلنا على تطور كبير شهدته التقنيات الفلاحية في الاندلس في هذا العهد نتج عنه تخلص علم الفلاحة من كثير من الخرافات والاساطير واتصاف مصطلحاته بالدقة والضبط ، لذلك فان جرد كتب الفلاحة الاندلسية لاستخراج مصطلحاتها قصد اعتمادها اساسا من اسس المعجم الفلاحي العربي الحديث يبدو لنا امرا ضروريا حتى لا نضطر الى القيام بعمل جديد في ميدان وضع المصطلحات اغفانا اسلافنا عنه ، خاصة وقد ثبت لدينا بالمقارنة ان قسما كبيرا من مصطلحات الاندلسيين في ميادين الزراعات الكبرى والاشجار المثمرة والري مستعمل لدى فلاحي البلاد التونسية حاليا ، وهو ما يدل على تواصل مسيرة هذه المصطلحات وحيويتها في مجال الاستعمال الحي .

على ان اهتمام العرب بالفلاحة لم يقتصر على وضع كتب خاصة بها . ذلك ان الفلاحة حظيت طيلة العهود الاسلامية باهتمام كبير ، فطرقت في كتب النبات والحيوان والصيدلة والطب والطبقات والحسبة . وبما انه يستحيل في هذا المقام ، ان نتعرض ولو لنموذج من كل صنف منها ، فاننا نكتفي بالاشارة الى ان اصحاب كتب الحسبة ، ومنهم يحيى بن عمر (المتوفى بسوسة سنة 289 هـ / 901 م) ، وابن عبدون الاشبيلي (الذي عاش في الاندلس في القرن السادس الهجري اي الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي) قد اولوا هذا الميدان عناية كبيرة، فاعتبر ابن عبدون « الفلاحة هي العمران ومنها العيش كله والصلاح جله » . وضبط يحيى بن عمر في « احكام السوق » ، الذي هو اول تاليف ظهر في العالم الاسلامي يبحث في شؤون الاسواق ، المكاييل والموازين التي يباع بها الانتاج الفلاحي ، فعرفنا ، عرضا ، بانواع المزروعات التي كان يتعاطاها فلاحو افريقية في عهده .

وان الرحالة العرب المشهورين كالمقدسي (4 هـ / 10 م) والبكري (5 هـ / 11 م). والتيجاني (7 هـ / 13 م) قد اهتموا في كتبهم بفلاحة المناطق التي زاروها . كما نجد الاهتمام بالفلاحة في الموسوعات الادبية ومنها : « نهاية الارب في فنون الادب » للنويري (677 هـ — 733 هـ) . فهذا الكاتب ، الذي شغل وظائف ادارية ذات بال في عهد المماليك بمصر قد خصص جانبا كبيرا من السفرين الثامن والتاسع من موسوعته الضخمة (التي طبع منها الى حد الآن ثمانية عشر سفرا) للحديث عن الضرائب التي يدفعها الفلاحون والتي هي مرتبطة بنوع التربة التي يستغلونها وطرق الري التي يتبعونها وانواع المزروعات التي يتعاطونها . ومن هذه الناحية فان هذا الكتاب هو ، كالعديد من الموسوعات الادبية الاخرى ، يزخر بالمصطلحات في جميع ميادين فلاحة مصر في عهد المماليك اي في القرنين السابع والثامن للهجرة .

واذا ما انتقلنا الى العصر الحديث وجدنا ان العرب عامة والمصريين خاصة قد اهتموا منذ بداية ما يسمى بعصر النهضة بعلم الفلاحة والعلوم المتصلة به . ويبدو ان احمد ندى ، الذي تعلم في فرنسا ضمن

بعثة دراسية ، هو اول من كتب فى الزراعة ، اذ الف « حسن الصناعة فى علم الزراعة » الذي طبع فى القاهرة سنة 1874 فى مجلدين . وقد اهتمت المجامع العربية ، وخاصة مجمع القاهرة ، بضبط مصطلحات الفلاحة . الا ان ابرز عمل فى هذا الميدان يبقى ، بدون شك « معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » لمصطفى الشهابى ، عضو مجمعي دمشق والقاهرة، الذي نشر فى دمشق سنة 1943 ، وفى القاهرة سنة 1957 . يحتوي هذا المعجم على 9996 مصطلحا فلاحيا وضعها هذا اللغوي والمهندس الزراعى بالاعتماد على كل الطرق المتبعة فى وضع المصطلحات العربية من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب .

وقد رجع الشهابى الى اهم المعاجم العربية القديمة اللغوية منها والمختصة ، الا ان اعتماده عليها كان فى جملته قليلا .

ان كل بلاد المشرق العربى فى وقتنا الحاضر تدرس فيها الفلاحة باللغة العربية ولها كتبها المدرسية فيها ، وقد ساعدها ذلك على تنمية الفاظها الزراعية. اما بالنسبة الى المغرب العربى فيمكننا التعرف على وضع المصطلحات اللغوية فيه بالاقتصار على تونس. ان الفلاحة ما زالت فى تونس تدرس فى مختلف مستويات التعليم والتكوين باللغة الفرنسية . الا ان اجهزة الاعلام ، التى توليها اهتماما مناسبا فى الجملة تستعمل اللغة العربية الفصيحة والعامية المهذبة ، فالاذاعة والتلفزة تخصص لها برنامجا يوميا واربعة برامج اسبوعية على الاقل ، كما ان بعض الصحف اليومية تخصص لها صفحات اسبوعية . يضاف الى ذلك مجلة شهرية بعنوان « تونس الخضراء » يصدرها الاتحاد القومى للفلاحين ومنشورات عديدة تصدرها مصلحة الارشاد الفلاحى بوزارة الفلاحة . وقد وضعت ادارة الغابات بوزارة الفلاحة قاموسا فرنسيا عربيا يشتمل على حوالى 980 مصطلحا غابيا وذلك سنة 1972 . كما ان قسم الجغرافيا بكلية الاداب بتونس ، الذي يدرس بعض المسائل الجغرافية باللغة العربية ، قد وضع منذ سنتين معجما فرنسيا عربيا لمصطلحات الجغرافيا الريفية وجغرافية السكان والجغرافية الطبيعية وغيرها . وان نظرة سريعة على لغة الفلاحة فى هذه المجالات المذكورة تبين ان المهندسين والمدرسين والصحفيين يجتهدون للتعبير عن مفاهيم الفلاحة ، فيستعملون عامية محلية ويستفيدون من العديد من المنشورات العلمية التى ترد من الشرق ومن المعجم الفرنسى العربى « المنهل » الذي اعتمد اعتمادا كبيرا على معجم الشهابى ، الا انهم لا يتقيدون بذلك دائما فيجتهدون اجتهادا خاصا قد يكون مصيبا احيانا ، فمصطلح Culture intensive يترجمه الشهابى « بزراعة كثيفة » (عندما تستغل المزرعة الصغيرة براس مال كبير للحصول على غلات كبيرة فى ارض صغيرة) ، وينقل عنه صاحبا « المنهل » هذا المصطلح ، ويستعمل المهندسون التونسيون المصطلح نفسه او مصطلحا قريبا منه وهو « زراعة مكثفة » الا اننا نجد فى « معجم المصطلحات الجغرافية » الذي اصدره قسم الجغرافيا بكلية الاداب : « زراعة جاهدة » .

وفى الجملة ، فان الالفاظ الفلاحية العربية فى تونس ما زالت غير مضبوطة وهى متصفة بتذبذب كبير ، كما انها موضوع اجتهادات فردية اصبحت تحتاج الآن الى تنسيق جماعى عاجل . فكلمة Serre الفرنسية التى تدل على بناء من زجاج او بلاستيك يقي المزروعات وخاصة الباكورات، يترجمها مجمع القاهرة بـ « دفيئة » والأب انستاس ماري الكرملى بـ «مصرى» ، ويضيف «المنهل» الى الترجمتين السابقتين ثالثة وهى « وام » . اما فى تونس فقد احصيت اكثر من عشرة مقابلات لهذه الكلمة عند المهندسين والفلاحين فى نطاقى المقول والمكتوب منها : « سار » (وتجمع على « سارات ») و «بيت بلاستيك » و « بيت باكورات » و « بيت مغطاة » و « بيت هواء مكيفة » و «بيت مكيفة » الخ.

ان هذا التبذخ فى التسميات بقدر ما هو دليل على قدرة فى التعبير تتصف بها اللغة وعلى اجتهاد متكلميها فانها عقبة كأداء فى الابلاغ تضخم المعجم تضخما يصعب معه تأدية المفاهيم بدقة ، ومقابل هذا التبذخ بالنسبة الى عدد من المفاهيم نجد فقرا يكاد يكون تاما فى التعبير عن مفاهيم اخرى ، لذلك يلتجىء الفلاحون والمهندسون والصحفيون الى التعبير عنها بطرق عديدة منها استعمال جملة تصفها بدل لفظة دقيقة واحدة .

واذا كان لابد من ان اختم هذه الكلمة عن الفاظ الفلاحة فى اللغة العربية فانى اقول : اننا امام تراث لغوي مكتوب ضخم لم يقع جرده بعد ، بل ان اغلبه لم يحقق ، فاستعماله يثير من هذه الناحية مشاكل عديدة منها انه يصعب التأكد من مدلولات هذه الالفاظ القديمة التى مر عليها عهد طويل ، وان

تراثنا الفلاحى الشفوي لم يجمع بعد ، بل انه كثيرا ما نظر اليه نظرة ازدراء واحتقار واعتبرت اللغة العامية متخلفة فى حين انها قادرة ، فى ميدان الفلاحة على الاقل ، على ان تسد شغورا كبيرا تشكوه العربية الفصيحة العصرية ، واننا من ناحية اخرى، امام واقع فلاحى بل اقتصادي واجتماعى يتطلب منا التعبير عنه وتادية مفاهيمه العصرية . وان المجتمع العربى والمغربى خاصة ، وان لم يقف مكتوف الايدي أمام هذا الواقع فان ما قام به فى هذا المجال يعد ضئيلا كماً وكيفاً .

واننا مدعوون الى ان نعبر بلغتنا القومية ، وفى أسرع وقت ، عن المفاهيم الفلاحية الجديدة. وان لغتنا بايدينا نستثمر ما امكن استثماره منها ونخضعها فى الباقى لاجل العلم والانسان العربى ، وانها فى ذلك لطيعة .